

البعد الحجاجي وبنية الإقناعية في خطابات البشير الإبراهيمي دراسة في عيون البصائر

The Argumentative Dimension and Its Persuasive Structure in
Al-Bachir Al-Ibrahimi's Speeches - A Study in the
" aiyoune elbassaaire "

أ.د/ نورالدين دريم

جامعة الشلف (الجزائر)

تاريخ القبول: 2020/05/23

تاريخ الإرسال: 2020/04/29

ملخص:

تميّزت خطابات البشير الإبراهيمي، بأنها حجاجية، وقد تعدّدت مجالات استعمال الحجاج فيها، حسب الظروف المختلفة، التي ألقى فيها الخطاب؛ لغرض إقناع الآخرين ومحاولة الشيخ هذه واعية نابعة من غيرته على وطنه، وما خلفه المستعمر الغاشم، هدفها التأثير في المتلقي (المثقف وغير المثقف من الجزائريين في تلك الفترة)، إن على مستوى السلوك، أو مستوى المعتقد والقناعة. وقد بناها الشيخ وفق استراتيجية لغوية لا يدرك سرّها سواه، هذه الدراسة تبين خصائص الخطاب الأدبي لدى البشير الإبراهيمي، من وجهة حجاجية، وإبراز البنية الإقناعية في هذا النوع من خطابه.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الخطاب، الإقناع، المثقف، الدراسة.

Abstract:

Al-Bashir Al-Ibrahimi's speeches were distinguished as argumentative, and the fields of argumentation using them varied, according to the different circumstances in which the speech was made, for the purpose of persuading others, and this sheikh's conscious attempt stemming from his jealousy over his homeland, and what the brutal colonial successor succeeded, aiming to influence the recipient (the intellectual and not The intellectual from the Algerians of that period), at the level of behavior, or the level of belief and conviction. The Sheikh built it according to a linguistic strategy whose secret is only aware of

it, this study shows the characteristics of literary discourse among Bashir Brahimi, from an argumentative point of view, and highlighting the persuasive structure in this type From his speeches.

keywords: argumentative, discourse, persuasion, intellectual, study

مقدمة:

تعددت الفنون الأدبية وكان منها "فن المقالة"، وقد ظهر هذا النوع الأدبي في أوائل القرن العشرين، تصاغ من خلاله الأفكار بلغة سلسة وأسلوب واضح، وقد تحمل في طياتها بعدا سياسيا أو اجتماعيا أو إصلاحيا، واشتهر في هذا الفن العديد من الكتاب على غرار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومصطفى لطفي المنفلوطي، ومحمود عباس العقاد وغيرهم كثير، وقد ألقى هذا الفن - آنذاك - بظلاله على كتاب جزائريين، فأبدعوا فيه وكان حامل لواء هذا الفن في الجزائر "مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" الشيخ البشير الإبراهيمي.

قبل عن مدرسة عيون البصائر "إنها مدرسة ذات أسلوبية قلّ مثلها في منهجية خطابنا العربي المرسل، فهي تضرب بجذورها في أعماق التراث العربي القديم، في الوقت الذي تبسط أغصانها المتعددة على فروع المعرفة الحديثة، وهي نسج فريد من الأدب، يجمع بين حكمة قس بن ساعدة الأيادي، وفصاحة سحبان، وعقلانية أبي عثمان الجاحظ وإشارات أبي حيان التوحيدي، إلى جانب رشاقة أسلوب عبد الحميد الكاتب، وأناقة عبارة أحمد حسن الزيات، ورمزية مصطفى صادق الرافعي، غير أنّها تريد على ذلك كلّ بخصوصيات أخرى، هي أنّها جزائرية العزيمة في التصدي للاستعمار، ومغاربة الالتزام في الدفاع عن الحرية، وعروبية الانتماء في التأصيل الحضاري، وإسلامية المنهج في علم التصحيح العقدي"⁽¹⁾، كان فارسها بلا منازع الشيخ البشير الإبراهيمي - رحمه الله -.

لما كانت خطابات الشيخ تحمل كلّ هذه المزايا، فهي لا محالة قد اتّسمت بصبغة حجاجية، فجاز لنا أن نطلق على بعضها خطابات حجاجية، لأنّها تنوعت من حيث مجالات استعمالها من قبل صاحبها، في ظروف مختلفة، لغرض إقناع الآخرين، فهي محاولة واعية جادة للتأثير في المتلقي (المثقف وغير المثقف من الجزائريين في تلك الفترة)، إن على

مستوى السلوك، أو مستوى المعتقد والقناعة. وقد بنى الشيخ خطاباته وفق استراتيجية لغوية لا يدرك كنهها إلا هو، في مجالات متنوعة.

تروم هذه الدراسة إلى البحث في خصائص الخطاب الأدبي لدى الشيخ البشير الإبراهيمي، من وجهة حمّاجية، وإبراز البنية الإقناعية في هذا النوع من الخطاب لدى الشيخ من خلال دراسة بعض النماذج من عيون البصائر.

1- لمحة عن عيون البصائر:

هي إحدى الآثار النفيسة التي خلفها شيخ الجزائر محمد البشير الإبراهيمي، وهي في الأصل عبارة عن مجموعة من المقالات الافتتاحية التي كتبها الشيخ في السلسلة الثانية من جريدة البصائر، ثم جمعت بعد ذلك وطبعت تحت مسمى "عيون البصائر"، وقد أصدرت السلسلة الثانية من جريدة البصائر سنة 1947 من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي "أضحت مدرسة أدبية لغوية تحتذى، ويشتاق إليها القارئ المنتهى قبل المبتدي، وينتظر صدورها بفارغ الصبر، ويحصل عليها رغم الفقر والجور، مجلة متنوعة عالمية، بما تحمله من لغة ساحرة، ومن بيان رفيع، ولسان سريع، فكانت مجلة الفصاحة والبيان، وأضحت قطوفة الجنان، في نمطها العالي، وفي بيانها الداني، ووضوحها الصافي، مجلة كانت قوام وجودنا المعنوي، وأساس امتدادنا الفكري والتاريخي، وحجر زاوية أمننا الثقافي والحضاري"⁽²⁾، كيف لا وقد صمدت في وجه العدو الغاشم، وأرقته شهورا وسنين متواليات، بفضل حنكة كتابها وقد عبّرت هذه الصحفية أيضا عن الاتجاه الإصلاحية الذي تبنته الجمعية، في أبعاده المتنوعة (الدينية والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والأدبية والعلمية...) وفي الغالب الأعمّ تفتح المقالات بقلم رئيسها الشيخ البشير الإبراهيمي، وقد لاقت استحسانا شديدا من قبل المشرق والمغرب، بسبب جودة محتواها ومضمونها، ورفي أسلوبها⁽³⁾.

ومن بين الخصائص المميزة لأسلوب تلك المقالات ما يلي⁽⁴⁾:

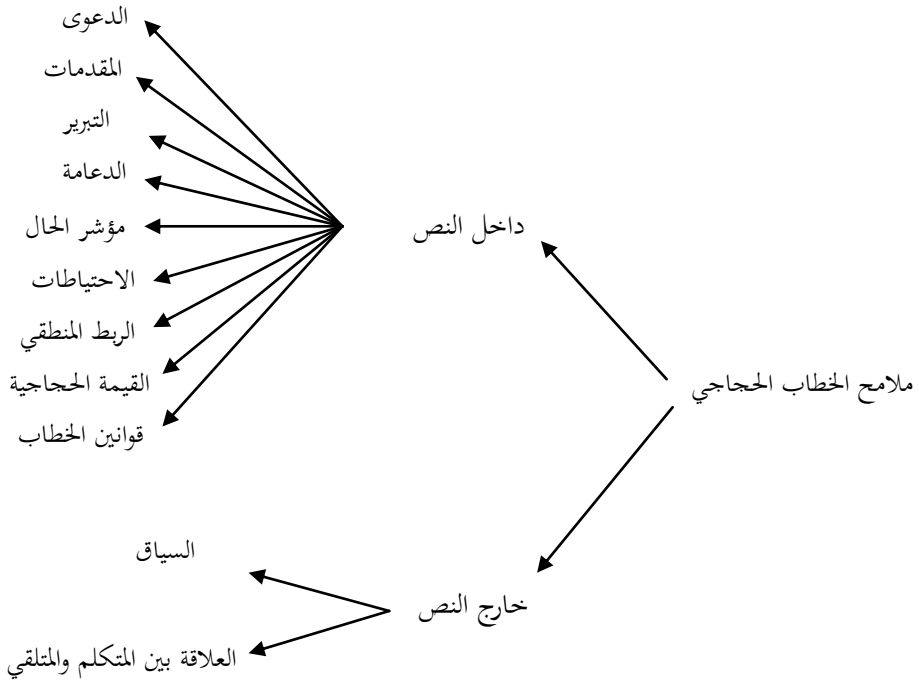
- العرض المنطقي والمنهجية الدقيقة
- الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة
- الرسالة
- السخريّة الحادة واللهجة العنيفة عند المناقشة.
- ظاهرة الاقتباس والتضمين.

2- مفهوم الحجاج

تعددت مفاهيم الحجاج، وإن اتفقت على أنه ينطلق من دعوى مبررة بغرض إقناع الآخرين" فالحجاج جنس خاص من الخطاب، يبنى على قضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً قاصداً إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"⁽⁵⁾، وحدّه عند طه عبد الرحمان "كلّ منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحقّ له الاعتراض عليها"⁽⁶⁾. أي إنّه خطاب قائم على المحاجة بين المتلقي والمتكلم.

3- ملامح الخطاب الحجاجي:

يمكن أن نلخصها في المخطط الآتي وفق ما جاء في الدراسات الحديثة:



وفي ظلّ هذه الملامح يمكن للمتكلّم أن يستعمل عدة أنواع من الحجاج، في سياق التّخاطب مع المتلقي، انطلاقاً من الفكرة التي يحاول أن يقنعها بها، وهو في ذلك قد يلجأ إلى استخدام آليات مختلفة من الإقناع، ومنها:

- الآليات النفسية والاجتماعية.

- الآليات المنطقية.

- الآليات اللغوية.

4- ملامح الحجاج في خطابات البشير الإبراهيمي:

تميّزت جلّ خطابات البشير الإبراهيمي التي جمعت في عيون البصائر، بجملة من الخصائص التي جعلتها صالحة لأن تكون نواة دراسة حجاجية بامتياز، بفضل تنوع أسلوب الشيخ في تقديمها، وتضمنها لجملة من الحجج المختلفة (عقلية، منطقية، لغوية...)، إضافة إلى ذلك صدق مقولة طه عبد الرحمن على خطابه حين قال "لا خطاب بغير حجاج"⁽⁷⁾ فلا يكاد يخلو خطاب من خطابه من حجاج. وأكثر من ذلك كلّ تنوع ثقافة الشيخ فقد ضرب بحظ وافر في كلّ علم (فقه ولغة ونحوها، ومنطق، وفلسفة)، وسعة اطلاع على كثير من العلوم والمعارف.

نحاول أن نبرز في هذه الدراسة التطبيقية لبعض خطابات الشيخ، تلك الملامح الحجاجية التي أقرها الدارسون المحدثون، على النحو الآتي:

4-1/ مكونات الحجاج داخل النص:

- **الدعوى:** إنّ المتصحّح لعيون البصائر تطالعه، عدة قضايا جوهرية، دعا إليها الشيخ الإبراهيمي في مقالاته، ويظهر ذلك جلياً في عناوينها من ذلك: "من الحقائق العريانة" ودعوته إلى الأخذ بمطالب الجمعية وعلى رأسها حق الأمة في التعليم العربي، وفي المساجد وأوقافها، وفي القضاء الإسلامي وإصلاحه⁽⁸⁾، إجمالاً ثمّ يفصّل في كلّ مطلب على حدة ومنها أيضاً: "إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم" ودعوته أبناء الجزائر إلى التشدّد في طلب العلم والصبر على تعلّمه والحرص على نيّله، ومنها كذلك: "اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، وليس لها ضرة" ودعوته إلى إقرار العربية لغة للجزائريين، بلا خلاف ولا ضغينة بينهم. ومنها أيضاً "معهد عبد الحميد بن باديس" ودعوته للأمة الجزائرية أن تحافظ عليه وعلى نهجه ومحتواه وأهدافه، وعلى هذه الشّاكلة نجد مقالات الشيخ لا تخلو من دعوى لقضية يعينها سواء في مجال الدّين أو العلم أو الاجتماع أو الإنسانية.

- **المقدمات:** جاءت جلّ مقدمات مقالات الشّيخ مبنية بناء منطقيا، منطلقا من بديهيات ومسلمات لبني حجاجه فيها، لأنّه بصدد أن يقنع المتلقي بما يطرحه من أفكار ورؤى وحقائق، وقد تميّزت كلّ مقالة عن أخرى بحسب موضوعها، وفي ما يلي بيان بعض مقدمات من مقالاته:

* مقالة "مدارس جمعية العلماء"⁽⁹⁾:

- وصفه للمدارس على أنّها نجوم تضيء ظلام الجهل الذي صيّره المستعمر في الجزائر.
- ذكره بأنّ حياة الأمم بالمدارس، وأنّ المدرسة منبع العلم والمعرفة، وفضلها يعلو على فضل المصانع والقصور والحدائق المشيّدة.
- ذكره بأنّ كلّ بناء خاو، وسيزول إلّا مبني المدارس الذي يعمر ويستمر ما دامت الحياة مستمرة.

* مقالة "كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار"⁽¹⁰⁾:

- ذكره بأنّ التعليم أمانة في عنق أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- ذكره للصبر ومجاهدة الشدائد والحن في ظلّ بسط المستعمر لهيمنتها، ودعوته لتجاوز الصّعاب والحن التي سيلاقونها لا محالة من قبل المستعمر.
- ذكره لمكانة المعلم في حياة قد ملئت بالجهل، وسيطر على أهلها الحرمان والفقر ومنع سكانها من تلقي العلم والمعرفة.

* مقالة "اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي"⁽¹¹⁾:

- ذكره لفضائل العربية، ورؤية الأمة الجزائرية لها.
- ذكره لمكائد المستعمر الفرنسي التي اتخذها سلاحا لمحاربة العربية، وثني عزيمة أهلها.
- ذكره لنظرة الجمعية إلى العربية، ورؤية المستعمر لها.

- **التبريرات:** لقد برهن الشّيخ في خطابه على صدق ما يدعو إليه، بدليل أنّه لم تكذّ تخلو مقالة من مقالاته من تبريرات لكلّ قضية كتب عنها أو طرحها للنقاش أو دافع عنها وتنبّين ذلك من خلال هذه التّماذج التي نوردها كدليل لما ذهبنا إليه مشفوعة بالتبريرات التي أوردها في خطابه:

- ففي مقالة "الكلمة الأخيرة للأمة"⁽¹²⁾، وبعد أن يقدم الشيخ دعواها ومقدماته يسترسل في ذكر المبررات، وهي على النحو الآتي:
- إنّ الاستعمار شيطان، فلا بدّ للجزائريين أن ينظروا إليه بهذه النظرة وعلى هذه الصورة.
 - بسطة المستعمر الغاشم وتمسكه بالجزائر، والتذكير بأحداث 8 ماي 1945م، وأن الجزائريين لم يسلموا من خبثه كما عبّر الشيخ البشير الإبراهيمي.
- وفي مقالة "من مشاكلنا الاجتماعية الشبان والزواج"⁽¹³⁾، يقدم الشيخ دعواه ومقدماته ثمّ يشرع في ذكر مبررات قضيته، وهي:
- عزوف الشباب عن الزواج، وتأخيرهم إلى سنّ ما فوق الثلاثين، وجملة المشاكل المترتبة عن هذا التأخير عند كلّ من الفئتين (الذكور والإناث)، وما يمكن للجزائر أن تخسره بفعل هذا التأخير.
 - طبيعة الزّواج في البداية وكيف أن أهلها يزوّجون أبناءهم في فترة مبكّرة جدّاً، وما ينجرّ عن الزّواج المبكر، ودعوة الشيخ إلى الاعتدال والوسطية في هذا الأمر.
 - التركيز على فئة بعينها، ومحاولة تقديم النصّح لها، بما يعود عليها وعلى الجزائر بالمنفعة العامة والخاصة معا.
- **الدعامة:** لا يفتأ الشيخ يدعم مقالاته بجملة من الشواهد والبراهين، والغاية من ذلك كلّهُ إقناع المتلقي بما يهدف إلى إيصاله له، فلم تكّد خطاباته تخلو من شواهد وأدلة على ما طرّقه وعالجها في مجالات تنوعت بتنوّع خطاباته، ومن ذلك ما جاء في مقالة "من مشاكلنا الاجتماعية الطلاق"⁽¹⁴⁾:
- جهل المسلمين بحقائق الدّين، بسبب جفاف الفقه عند الفقهاء، لما أخذوه من كتب تعلّم الأحكام ولا تعلّم الحكم كما عبّر الإبراهيمي.
 - وجوب أخذ الفقه من القرآن والسنة وعلماء السلف، أو كتب العلماء المستقلين المستقلين التي تقرن المسائل بأدلتها.
 - الحلف بالطلاق سبب في خراب البيوت ودمارها، وقد تكون المرأة لا دخل لها في ذلك فتصبح في عداد المطلقات، وهي لا تعلم شيئاً، ولا تمتّ إلى ذلك اليمين بصلة.

- العواقب الوخيمة للطلاق، والحال التي ينشأ عليها الولد الذي حرم عطف أحد أبويه.
- ومن ذلك أيضا ما جاء من أدلة في مقالة "عواقب سكوت علماء الدين عن الضلال في الدين"⁽¹⁵⁾، لما قدّم الشيخ الإبراهيمي لهذه القضية جملة من المقدمات والتبريرات ضمّنها العديد من الأدلة والبراهين، وهي:
- حقّ العامة على العلماء دعوتهم إلى التمسك بالدين، لأنّ لعلماء الإسلام سلطان على الروح، مستمدّ من روحانية الدّين الإسلامي، والعامة تخضع له بسهولة وينفذ إلى نفوسها.
- كانت الدّعوة إلى الدين الإسلامي في عهد النّبي ﷺ قد بلغت مبلغها، واستمر الحال على ذلك في عهد الصّحابة - رضوان الله عليهم-، وهو دليل صريح على وجوب دعوة النّاس إلى الهداية والالتزام بتعاليم الدّين الحنيف.
- ذكر وقائع حدث عبر امتداد التاريخ الإسلامي (وما حصل في أمر البيعة).
- خلو السّاحة من العلماء والفقهاء، أدّى إلى انتشار الدّجالين والسحرة، ففسدت بذلك عقائد المسلمين وأخلاقهم.
- **مؤشر الحال:** إنّ علو كعب الإبراهيمي في اللّغة جعله فارسا فيها بفضل استخدامه وتوظيفه لأساليب لغوية لا يحسن استعمالها إلا هو، والغرض من ذلك كلّ، إقناع المتلقي بتطبيق ما دعا إليه في مختلف خطابه، وجاءت مقالاته حافلة بالأساليب الرّائعة ومن ذلك: قوله "يوم مظلم الجوانب بالظّلم، مطرّز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعر الأرض من بطش الأقوياء، مبهج السماء بأرواح الشهداء، خلعت شمس طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر ولا نور، وغابت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير ولا تدوين"⁽¹⁶⁾، فتأمل معي هذه العبارات الرّنانة والتشبيهات البديعة، والمفردات الغريبة ذات المعاني الجليلة، فالشيخ يصرّو لنا ذلك اليوم (ذكرى الثامن ماي 1945م)، كبيت جوانبه مظلمة بسبب غياب النور، وكأنّ ظلم المستعمر ليل ألقي بظلمته على الجزائريين، وأنّ كثرة الدماء صارت كالطّلاء للمنزل، وهي كناية عن كثرة القتلى الذين لقوا حتفهم على يد المستعمر، وأنّ الأرض تجسّدت في شكل إنسان وارتعشت خوفا، من بطش المستعمر، وأنّ سقفه (السّماء المعنى البعيد) فرح بأرواح الشهداء دلالة على نقاء نفوسهم التي قدموها

تضحية للوطن، ثم صوّر لنا ذلك المشهد المريب والسّاحة المليئة بالقتلى على أنّها مدينة بلا حياة غابت عنها الشّمس فانعدمت الحياة فيها، وصوّر عجز الكتّاب والمصوّرين عن وصف المنظر نتيجة لهوله. بلغة بدیعة ووصف لا يداني بأسلوب كاتب مقتدر.

- الاحتيّاطات: كان الشّيخ الإبراهيمي ذكيا في طرحه لجملة القضايا التي تناولها، فقد وضع في الحسبان العديد من الاحتيّاطات أثناء إلقاءه لخطاباته، تحسّبا لردود المتلقّي المتوقعة وغير المتوقعة، ومن ذلك مثلا لا حصرا، ما جاء في مقالة "حدّثونا عن العدل فإننا نسيناه"⁽¹⁷⁾، فهو يفتتح خطابه بتساؤل عن العدل ثمّ عن المصادر التي يتأتى منها العدل وهو يعلم يقينا بأنّ فرنسا ظالمة غير عادلة، فنجدّه يقدّم خطابه عن فرنسا الرائدة في العلم والمعرفة والأدب والفنّ ... وغير ذلك، ثمّ يقدّم لنا الصّورة الحقيقة لفرنسا ذاك المستعمر الغاشم، وينتقل بعدها بتقديم دليل حسيّ حين يذكر تلك المفارقة بين الحنظل والعسل ويعقب ذلك كلّه بأدلة وبراهين كثيرة عقلية ولغوية وغيرها.

- الرّبط المنطقي: من خصائص خطابات الإبراهيمي الرّبط المنطقي بين أجزائها، فحين يعالج أية قضية كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية، أو ثقافية، إلّا وجدنا أجزاء الخطاب متماسكة متسلسلة وفق عرض منطقي، نذكر من ذلك، ما وقفنا عليه في مقالة "أرحام تتعاطف"⁽¹⁸⁾، وهو يدعو من خلال هذا العنوان إلى توحيد الأمة الإسلامية تحت لواء واحد وهو الإسلام من شرقها إلى غربها، حتّى لا تكون لقمة سائغة في فم المستعمر الغاشم، ثمّ انبرى يذكر الأدلة والحجج التي تؤكّد قوة الأمة في توحيدها، ويسرد براهين واقعية على أنّ الاستعمار يسعى إلى بثّ دسيّة التّفرق والاختلاف بين المسلمين، لينتهي إلى أنّ هذه الدّعوى يجب أن تؤخذ على محمل الجدّ؛ لأنّ المستعمر سيعمل على وأدها لا محالة لما لها من فائدة ترتجى.

- القيمة الحجاجية: كانت غاية الإبراهيمي من خطاباته في عيون البصائر، تحقيق جملة من الأهداف من خلال القضايا التي عالجها بمختلف أصنافها، وقد ضمنها قيمة حجاجية لذلك جاءت كلّ خطاباته حجاجية بكلّ ما تحمله كلمة الحجاج من معنى، ونذكر من مقالاته "فلسطين تصوير الفجیعة"⁽¹⁹⁾، التي ضمّنها قيمة حجاجية وهي:

- حبّ كلّ جزائري لفلسطين؛ لأنها أولى القبلتين، وفيها المسجد الأقصى، وأثما مسرى رسول الله ﷺ، وأثما مهبط الأنبياء عليهم السلام.
- اغتصاب اليهود لأرض فلسطين.
- فلسطين عربية الأرض والدم.

- قوانين الخطاب: لم يلجأ البشير الإبراهيمي في إقناع خصومه أثناء خطابه إلى قوة السلاح، بل احتكم إلى قوانين الخطاب، واتخذ من قوة قلمه وإبداع فكره سبيلا لإقناع المتلقي، انطلاقا من جملة الحجج التي ساقها في كلّ خطابه، ومن ذلك مقالته "محنة مصر محنتنا"⁽²⁰⁾، والتي يصوّر فيها معاناة الشعب المصري من ولايات المستعمر الإنجليزي، ويشبه محنته بمحنة الشعب الجزائري ومعاناته هو أيضا من ولايات المستعمر الغاشم، وليثبت ألم معاناته استوقفته عدة حجج منطقية ولغوية، استعان بها ليوصل فكرة أنّ ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، ضمن حوار هادئ عوّدنا عليه الشيخ في خطابه.

4-2/ مكونات الحجاج خارج النص:

- السياق: ويقصد به تلك الظروف المحيطة بالخطاب لحظة إنتاجه، فالزمن الذي كتب فيه الشيخ مقالاته يحيل لا محالة إلى الظروف التي عايشها الشيخ أثناء كتاباته، فالسياق التاريخي يثبت معاناته هو والشعب الجزائري من وطأة الاستعمار، أضف إلى ذلك الشعوب العربية التي عانت هي الأخرى من ولايته، فإذا تأملنا خطابه فجّلّها عالج قضايا حساسة: إما دينية، أو اجتماعية أو إنسانية، أو سياسية... وغيرها، فصوّر الشيخ بصدق ما عايشه آنذاك وقد ضمن جلّ خطابه أبعادا حجاجية، من أجل أن يقنع المتلقي مهما كانت صفته (المستعمر، الشعب الجزائري، العرب، السياسيون، الحكام... وغيرهم).

العلاقة بين المتلقي والمتكلم: غالبا ما يكون البشير الإبراهيمي هو المتكلم في خطابه أمّا المتلقي فيختلف من مقالة إلى أخرى بحسب المقام الذي قيل فيه الخطاب والسياق الذي كتب فيه، ولكن خطابات الشيخ جاءت بعربية فصحي وأسلوب رائق سلس، وإبداع فني لا مثيل له، فكيف يمكن أن يحقق الشيخ هدف الإقناع من وراء إنتاجها، والشعب الجزائري (أحد المتلقين لخطابه) يعاني الأمرين الفقر والجهل، لكن وعلى الرغم من تراثية

لغته، فالشيخ يخاطب شعبه بحسب مقام معرفته وإدراكهم، لذلك نجد لغته في الخطابات التي وجهها إلى عامة الشعب الجزائري، لغة سهلة واضحة المعاني والأفكار (مثلا مقالة "دروس الوعظ في رمضان")، أما إن كانت موجهة إلى الطبقة المثقفة، فالشيخ يرفع من حدته اللغوية، ويقوّي أسلوبه الرصين (مثلا: مقالة "كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار")، وأما من أراد أن يقرأ عيون البصائر - كحالتنا اليوم - فليمعن النظر في العبارة الآتية: إنّ "لقراءة هذا الكتاب ودراسته، قواعد وشروط، لا بدّ من توفرها لمن أراد القيام بهذه الرسالة العلمية، فمضمون الكتاب يحتوي على رموز قرآنية، وإيحاءات معرفية، وألغاز سياسية، واستعارات مجازية، ولا بدّ لمن رام الإقدام على هذه المهمة من التحلي باستعداد فكري خاص، والتسلّح بأدوات معرفية معينة، تمكّن من تخطي الصعاب، وكشف أسرار الحجاب"⁽²¹⁾، فيجب على كلّ دارس أن يتحلّى بروح علمية صابرة مثابرة لقراءة تراث الشيخ وأن يعمل جاهدا على كشف مكنوناته.

5- آليات المحاجة عند البشير الإبراهيمي:

سبق وأن قلنا إن خطابات الشيخ جلها اتسم بالحجاج، فكان لزاما أن يعتمد على جملة من الآليات التي تحقق هدف الإقناع من خلال الخطاب، وبمنظرة فاحصة لخطابات الشيخ نجدده قد اعتمد على الآليات الآتية:

● **الآليات المنطقية:** التي تقوم على خاصية التدعيم، والذي يتحقق بدوره بفضل طبيعة الأدلة التي ساقها الشيخ في خطابه من أجل المحاجة، ومن تلك الأدلة:

- **الأدلة التاريخية:** ويظهر ذلك في قوله "فكان الأشبه أن أقول: أثر الأزهر في الثورات المصرية؛ لأنّ الأزهر حقيق عليه أن يعلم الناس الثورات، على الأباطيل في الدين والدنيا ولأنّ الأزهر ساهم بالفعل في الثورات المتتابعة في مصر على الحاكمين من الأمراء الفاسدين وعلى المتحكمين من المستعمرين الغاصبين، ولعمر الحق إذا لم يكن الأزهر معهدا لتعليم الثورات على الشرّ، وميدانا لتنظيم الثورات على أهل الشرّ، فماذا عسى أن يكون"⁽²²⁾ فبيّن الشيخ الدور الريادي للأزهر في قيام الثورات المتعاقبة في مصر ردّا على طمع المستعمر الغاصب أو الحاكم الفاسد.

- الأدلة اللغوية: ومن ذلك ما سقاه في بيان دلالة "الاستعمار"، إذ يقول "هون عليك فإنّ المظلوم هنا هو هذه الكلمة العربية الجليلة التي ترجموا بها معنى خسيس، مادة هذه الكلمة هي العمارة، ومن مشتقاتها التّعمير، وال عمران وفي القرآن "هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب، وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب، ولا ننكر من استعمالاتها في ألسنة خاصتنا وعامتنا إلّا العمارة الدرقاوية، ولكن إخراجها من المعنى العربي الطّيب إلى المعنى الغربي الخبيث، ظلم لها، فاستحقّت الدخول من هذا الباب، والإدراج تحت هذا العنوان، فالذي صيّر هذه الكلمة بغیضة إلى النفوس ثقيلة على الأسماع، مستوخمة من الأذواق، هو معناها الخارجي، وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب، والظلم والتعدي، والفساد، والنّهب والسرقة، والشّر، والقسوة، والانتهاك والقتل، والحيوانية... إلى عشرات من مئات هذه الرذائل تفسّرها آثاره وتنجلي عنها وقائعه"⁽²³⁾، فانظر إلى براعة الشيخ اللغوية، حين حدّد المعنى اللغوي لكلمة الاستعمار واستعمالاتها التي تدلّ على الطيب من الأشياء، ثمّ بيّن أن هذه الكلمة اكتسبت معنى جديدا في إطار ما يعرف بالتطور الدلالي - في نظرنا - وهو الإثم والبغي ... وجميع تلك المعاني التي ذكرها الشيخ أو لم يذكرها.

- الأدلة الدينية: ومن ذلك قوله "والقرآن القرآن، تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق وعلى الاستظهار به في الجدل وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون"⁽²⁴⁾ فنبّه من خلال هذا القول على أنّ القرآن محل شواهد متنوعة بتنوع المجالات التي تساق فيها الأدلة، فاللغوي لا مناص له من الاستشهاد به، ومثله الفقيه والمحدّث، والدّاعية لا محيد له عن الاستدلال به، والمجادل إن أراد الحجة الدّامغة فعليه بالقرآن.

- الأدلة الحسية والمادية: ويتجلّى ذلك في قوله "إنّ العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل، وجاء بالعربية ومعها العلم، فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب ولكنه خضوع الأخوة، لا خضوع القوة وتسليم الاحترام، لا تسليم الاجترام، والعلم هو الذي طوّع البربرية للعربية"⁽²⁵⁾، فأثبت الشيخ بالدليل المادي والحسّي معا بأن العدل كان سببا في خضوع البربر في الفتوحات الإسلامية، وأن العلم هو من طوّع البربرية للعربية.

- **الأدلة القياسية:** أو ما يعرف بالقياس المنطقي، وقد وظّفه الإبراهيمي بكثرة في خطابه، ونلتمس ذلك في هذا النص الذي يقول فيه "من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عقوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاولة الفصل بين الفرقدين، ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلّط لها البربرية في بعض قرن فإنّ تسامح ففي قرن"⁽²⁶⁾ ففي النصّ قياسان منطقيان، ذكره بأنّ البربر دخلوا طواعية في الإسلام من غير قوة، ونتيجة ذلك أنّهم تعرّبوا وأصبحت لغتهم العربية، والثاني بقايا البربرية في بعض أقطار الجزائر يترتب عنها نتيجة بأن الإسلام دين عدل.

الآليات اللغوية: وعمادها: الإحالة، والتكرار والازدواج.

- **الإحالة:** وهي كل "العناصر المحيلة كيفما كان نوعها لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل إذ لا بدّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها"⁽²⁷⁾؛ وحدّها أحمد المتوكل بأنّها "علاقة تقوم بين الخطاب، وما يحيل عليه الخطاب إن في الواقع أو في المتخيّل أو في خطاب سابق/ لاحق"⁽²⁸⁾، وهي كثيرة في خطابات الشيخ، تنوعت بين الإحالة الدّاخلية والإحالة الخارجيّة.

من أمثلة الإحالة الدّاخلية (القبلية والبعدية) في خطابات الشيخ، قوله "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، ... فأزعم أنني جرّيت ودرست، وأنني قرأت هذه الأمة وفهمتها"⁽²⁹⁾، (وهي إحالة قبلية) أراد الشيخ من خلال قوله أن يبين فضل خدمة الأمة وعلى أي وجه يكون، فأشار بلفظ الأمة، ثمّ أحال عليه باللفظ نفسه في سياق الحديث عن خدمة الأمة، وغايته من ذلك تحقيق الربط المنطقي الذي يسهل عرض الأفكار في الخطاب. ومن الإحالة البعدية، قوله "بدأ المعهد في سنته الأولى على خلاف ما تبدّأ به مشاريعنا، قويا جيّاشا بالحركة والنشاط، ولكنّه نشاط من جهة واحدة، من المدير والمدرسين"⁽³⁰⁾، فأشار الشيخ إلى طبيعة المعهد التي اكتسبها بلفظ "على خلاف" وهي إحالة بعدية تفتح لدى المتلقي أفق التأويل كيف ستكون هذه الطبيعة، إلا أن يُذكر لفظ قوي ترول معه التساؤلات وتذهب عن عقل السّامع التّوهّمات.

أما الإحالة الخارجية: وهي الإحالة المقامية، ويرى الأزهر الزناد أنها "إحالة عنصر لغوي إلى عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي، كأن يحيل ضمير المتكلم المفرد إلى ذات المتكلم، حيث يرتبط عنصر لغوي إحالي بعنصر غير لغوي هو ذات المتكلم ويمكن أن يشير عنصر لغوي إلى المقام ذاته في تفاصيله، أو مجملاً، إذ يمثل كائناً أو مرجعاً موجوداً مستقلاً بنفسه"⁽³¹⁾. ومن ذلك قوله "لا معنى للشمول في القوانين، ما لم يصاحبه شمول في التطبيق والتنفيذ، وإذا كان واضع القانون ليس منّا، ومنفذه ليس منّا فمن البلاء تطبيقه علينا"⁽³²⁾، هي إحالة خارجية تشير إليها عبارة "واضع القانون ليس منّا"، ويقصد المستعمر الفرنسي الغاشم، فأشار إليه وهو خارج النص بعنصر لغوي.

- التكرار: وهي خاصية لمسناها في بعض خطابات البشير الإبراهيمي في عيون البصائر وقد تنوع بين التام والجزئي، فمن التام، أن يعيد العبارة بلفظها ومعناها، كعبارة "يا شباب الجزائر هكذا كونوا أو لا تكونوا" التي وردت في مقالة "الشباب الجزائري كما تمثله لي الخواطر"⁽³³⁾، أربع مرات، ولم يأت الشيخ على تكرارها فحسب بل أراد أن يلفت انتباه الشباب إلى أمر مهم، وهو ما يجب أن يكونوا عليه، خاصة وأن المستعمر قد بسط هيمنته، واشتد عود الجهل والفقر في الجزائر. أما التكرار الجزئي فيقصد به تكرار اللفظ دون المعنى، وقد وقفنا على نماذج من هذا النوع في خطابات الشيخ، ومن ذلك قوله "وخصّ الله بتحياته المباركة، أولئك الذين زادوا، على التهنية بالعيد تهنة العربية بالبصائر، وتهنة البصائر بجهادها وبالمكانة التي تبوّأها في القلوب"⁽³⁴⁾، فتكرار لفظ "تهنة" لا يعني بأن اللفظ نفس المعنى، بل تغيّر معناها انطلاقاً من السياق.

- الازدواج: ويتعلق بالنسج اللغوي لخطابات البشير الإبراهيمي، كأن تتكرر بنية لغوية في خطاب واحد، من نحو قوله: عيد: لو عدت على قومي بالخفض والدعة، أو جدت عليه باليسر والسعة، لوجدت مني اللسان الخافق بذكرك، والقلم الدافق بشكرك، ولكنك عدت عليه بنهار كاسف الشمس ويوم شرّ من أمس"⁽³⁵⁾.

خاتمة:

- امتازت خطابات الشيخ البشير الإبراهيمي، بلغة تراثية راقية، وأسلوب سلس، أكسبها ذلك أبعادا حجاجية، كانت الغاية منها تحقيق الإقناع لدى المتلقي، الذي تنوع داخل خطاباته (الشعب الجزائري، المستعمر، الحكام، العرب،... وغيرهم)، وقد استخدم خلالها الشيخ آليات متنوعة لذلك الغرض.
- جاءت خطابات الإبراهيمي متنوعة عالج فيها قضايا دينية أو اجتماعية أو سياسية، أو ثقافية، أو تعليمية، وأعمل خلالها حجاجا لغويا ومنطقيا، بحسب ما يقتضيه الخطاب.
- اكتست خطابات الشيخ البشير الإبراهيمي طابعا حجاجيا، بفضل تضمّنها للمكوّنات الحجاجية التي أقرّها الدارسون المحدثون.

الهوامش والإحالات

- (1) - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقدّم أحمد طالب الإبراهيمي، ج3 عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص05.
- (2) - محاضرات في التربيّات والإسلاميات، صالح بلعيد، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر 2015، ص182.
- (3) - ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (1954-1962)، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، 2007، ج10، ص197.
- (4) - ينظر: عبد الملك بومنجل، النشر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص37.
- (5) - النص الحجاجي العربي دراسة في وسائل الإقناع، محمد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، 2002، العدد 60، ص44.
- (6) - اللسان والميزان، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى 1998، ص221.
- (7) - اللسان والميزان، طه عبد الرحمان، ص213.
- (8) - ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، عيون البصائر، ص48.
- (9) - المصدر نفسه، ص288.

- (10) - المصدر نفسه، ص 266.
- (11) - المصدر نفسه، ص 281.
- (12) - المصدر نفسه، ص 288.
- (13) - المصدر نفسه، ص 293.
- (14) - المصدر نفسه، ص 297.
- (15) - المصدر نفسه، ص 308.
- (16) - المصدر نفسه، ص 333.
- (17) - المصدر نفسه، ص 370.
- (18) - المصدر نفسه، ص 422.
- (19) - المصدر نفسه، ص 435.
- (20) - المصدر نفسه، ص 490.
- (21) - المصدر نفسه، ص 06.
- (22) - المصدر نفسه، ص 499.
- (23) - المصدر نفسه، ص 506.
- (24) - المصدر نفسه، ص 204.
- (25) - المصدر نفسه، ص 207.
- (26) - المصدر نفسه، ص 206/207.
- (27) - المصدر نفسه، ص 209.
- (28) - المصدر نفسه، ص 213.
- (29) - المصدر نفسه، ص 220.
- (30) - المصدر نفسه، ص 509.
- (31) - المصدر نفسه، ص 489.
- (32) - المصدر نفسه، ص 480.
- (33) - المصدر نفسه، ص 509.
- (34) - المصدر نفسه، ص 489.
- (35) - المصدر نفسه، ص 480.